تأملات إيمانية
في سورة
يوسف عليه السلام

بقلم
فضيلة الشيخ الدكتور
ياسر برهامي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
الإسكندرية ٥٤٥٧٧٦٩

دار الهجرة
للتوزيع الكتاب والشريط والتسجيل
ناكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم

محفوظة
جميع الحقوق

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٥٠٨١ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى
977-331-275-5

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب : ٧١-٧٠] .

أما بعد ... فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

سورة يوسف هذه المعجزة الخالدة، والدلالة القاطعة من دلائل نبوة محمد ﷺ، طالما وقفت القلوب والعقول مبهورة أمام ما تضمنّه سياقها العظيم من أنواع النور من الخبر الصادق، والقصص الحسن، ومعاني الإيمان الصافي، والعقيدة النقية، وتعريف العباد بأسماء ربهم، وصفاته، وأفعاله، وتعليق قلوبهم بها، والتفصيل الدقيق لما يحتاج إليه المكلفون، والإعراض عن ما لا فائدة لهم في

ذكره، وتحبيب النفوس في المُثل العليا في شخص أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه ، وتبيين الأحكام والحلال والحرام والأخلاق، وكشف أغوار الشخصيات التي تجد أمثالها متكررة في كل زمانٍ ومكانٍ، فتعرف غور النفس الإنسانية، وما يعتريها من أمراض، وكيفية معالجتها، والأسلوب العليّ الحبيّ النقيّ الذي يصف أحرج المواقف التي تتسلّل من خلالها الشياطين في قصص البشرلإفساد القلوب وإلقاء بذر الحرام فيها، يصفها بأروع وأنصع وأنظف الكلمات التي تلقي بذور الإيمان والطاعة، وتسمو بالقلب ليرتفع عن علائق الطين ليكون في النديّ الأعلى بدلاً من الحضيض الأسفل، وغير ذلك من أنواع الهدى والنور يعجز اللسان والقلم عن وصف ما يقع في القلب منها، فضلاً عما تتفاوت فيه القلوب في إدراكاتها من شخصٍ لآخرٍ، بل ومن قراءةٍ لأخرى، ومن مرةٍ لأخرى لنفس الشخص؛ فضلاً عما أحاط الله به من العلوم التي تضمّنتها، والمعاني التي احتوتها، فسبحان من أحاط بكل شئٍ علمًا، ولا يحيطون به علمًا .

والحمد لله الذي امتنّ علينا ببعثة رسولهﷺ، وإنزال القرآن عليه، ومَنْحِه هذه السورة الكريمة، فَصَلِّ اللهم على من اجتبيته واصطفيته من خلقك لتنزل على قلبه هذا الكتاب، وتفيض عليه الحكمة، وسَلِّمْ تسليمًا كثيراً ...

وبعد ...

فهذه محاولة لتدبّر ما في هذه السورة العظيمة – وكل القرآن عظيم – من المعاني، بعد الوقوف على تفسيرها، وبيان حقائق الإيمان، وتزكية النفس من مواقف القصة، بعيداً عمّا عَلَقَ بكثير من التفاسير في هذه المواقف من الآثار الإسرائيلية التي تهتم دائمًا بالتفاصيل غير المفيدة، فتأخذ القلب بعيداً عن طريقة القرآن المبهرة المضيئة المنيرة .

أكتبها تذكاراً لنفسي عساها تستيقظ في فترات غفلتها على منة الله في أوقات التنبيه، وتذكرةً لإخواني وأحبائي المسلمين عسى أن ندرك شيئًا من عظمة القرآن وطريقته الكريمة، فنزداد حبًا وشوقًا لمن أنزله سبحانه، وحرصًا على تلاوته وتدبره، ونزداد حبًا لرسول الله ﷺ الذي خَصَّهُ الله بهذه الرحمة والفضل العظيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو يخلق ما يشاء ويختار، فاختار قلب محمد ﷺ ليملأه بالنور المبين، ويفيض على من اجتباهم من عباده المؤمنين من آثار هذا النور، ونزداد حبًا لأنبياء اللهصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين خصوصًا في هذه السورة، إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف صلى الله عليهم وسلم، وشوقًا للحياة معهم، في الدنيا بذكر سيرتهم، ونسأل الله أن يرزقنا مرافقتهم في الآخرة بحبنا لهم، وإن لم نعمل عملهم أو نتصف بصفاتهم .

وأكتبها كذلك تسليةً لنفسي ولأهلي وأولادي في منحة المحنة التي أصابتنا، وتبشيراً لنا وللمسلمين جميعًا بقرب النصرة والفرج والتمكين، فإن هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمكة والإسلام محاصر حبيس بها، والمسلمون مضطهدون تنالهم أنواع الأذى، والظلام دامس شديد، فنزلت السورة مبشرةً بقرب الفرج والنصر والتمكين ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ .

[يوسف : ١١٠] .

وأسأله سبحانه أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، وصالحًا على وفق شرعه المنزل على خير خلقه محمد ﷺ، وأن يجعله كذلك من أسباب الثبات على الدين في مواجهة الفتن، فاللهم يا مُقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك، ويا مُصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك، اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك،

ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، اللهم علِّمنا منه ما جهلنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وآناء النهار على الوجه الذي يرضيك عنا، ونسألك اللهم رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.....آمين.

كتبه

ياسر برهامي

حفظه الله

تفسير البسملة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

اتفق العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل، واختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة (أي : فهي لا تعد من آياتها)؟ أم هي آية من كل سورة (أي : فهي إحدى آياتها) ؟ أو أنها بعض آية من كل سورة (أي : تكون الآية الأولى في كل سورة هي البسملة وما يليها) ؟ أم أنها آية من الفاتحة دون غيرها ؟ أو أنها كتبت للفصل لا أنها آية ؟ وأصح الأقوال أنها إحدى آيات الفاتحة، وآية مستقلة في أول كل سورة للحديث الذي رواه ابن خزيمة وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا : « **إذا قرأتم فاتحة الكتاب فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياتها** » (١) صححه الألباني، فهو دليل على أنها إحدى آيات الفاتحة، أمّا أنها آية مستقلة في أول كل سورة، فللحديث الذي رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ « **كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم** » (٢)، وللحديث الذي رواه مسلم وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا، إمَّا قال لهم وإمَّا قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **إنه أنزلت علي آنفاً سورة** »، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها . . . » الحديث (٣)، وللحديث الذي رواه أهل السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « **إن سورةً في القرآن ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غُفر له** :

---

(١) صحيح : رواه الدارقطني (٣٦) الصلاة، والبيهقي (٢٢١٩) الصلاة كلاهما عن أبي هريرة بلفظ « إذا قرأتم الحمد لله . . . » الحديث ، وابن خزيمة (٤٩٣) الصلاة عن أم سلمة بمعناه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود (٧٨٨) الصلاة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٤) .

(٣) رواه مسلم (٤٠٠) الصلاة ، وأبو داود (٤٧٤٧) السنة واللفظ له ، والنسائي (٩٠٤) الافتتاح ، وأحمد (١٢٠١٥) في مسند أنس بن مالك .

تبارك الذي بيده الملك »[١]، وهي ثلاثون آية مستقلة دون عدّ بسم الله الرحمن الرحيم، فهذه الأحاديث ترجح ما ذكرنا من أنها آية مستقلة في أول كل سورة، وأنها إحدى آيات الفاتحة، والله أعلم .

والباء في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ متعلقة بمبتدأ مؤخر محذوف تقديره (ابتدائي)، أو بفعل محذوف تقديره (أبدأ)، أي : ابتدائي بسم الله أو أبدأ باسمه أي : بذكر اسمه عز وجل استعانةً وتبركًا .

واسم ﴿ اللَّهِ ﴾ بمعنى : الإله المعبود وحده لا شريك له على أصح قولي العلماء مشتق من الإلاهة، ودليله قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ** ﴾ [الأنعام:٣]، مثل قوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ [الزخرف : ٨٤]، فينبغي على العبد حين يذكر اسم ﴿ اللَّهِ ﴾ أن يستحضر القضية الأولى في حياته بل في الوجود كله، وهي إفراد الله بالعبادة كما قال عز وجل لموسى : ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي** ﴾ [طه : ١٤] .

واسم ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ الاسم الدال على صفة الرحمة العامة من صفة الذات، أي التي هي من لوازم ذاته عز وجل ليست متعلقة بمشيئته، بل كل من سواه مرحوم بهذه الرحمة بمقتضى كونه مخلوقًا من مخلوقاته، بصرف النظر عن كونه مطيعًا أو عاصيًا، مؤمنًا أو كافرًا، فهذه الرحمة العامة وسعت كل شئ سواه عز وجل، وينبغي على العبد أن يستحضر عند تلاوته لاسمه ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ عز وجل آثار رحمة الله بخلقه جميعًا، وكيف « **أن رحمةً واحدة من مئة رحمة أنزلها الله عز وجل، بها تتراحم الخلائق من أولهم إلى آخرهم، وبها ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** »[٢] ،وتأمل ما في قلوب البشر من التراحم بين

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (١١٩٢) الصلاة ، والترمذي (٢٨١٦) فضائل القرآن ، وابن ماجة (٣٧٨٦) الأدب ، وأحمد (٧٩٦٢) ، وابن حبان (٧٨٧) ، والحاكم (٢٠٧٥) ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩١) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٦٠٠٠) الأدب ، ومسلم (٢٧٥٢) التوبة .

الأمهات والآباء والأولاد، وبين الأزواج والزوجات وغيرهم، ثم ما في قلوب سائر الحيوانات لأولادها، وانظر إلى آثار رحمة الله خلقَه بالمطر، وما ينزل لهم من الأرزاق والعطايا، والمعافاة في الأبدان والأهل والأموال، وكل هذه من هذه الرحمة الواحدة المخلوقة، وادّخر عز وجل تسعةً وتسعين رحمةً ليوم القيامة، فعند ذلك يرجو المؤمن رحمة ربه رجاءً عظيمًا، ويناله من رحمة الله فوق ما يخطر بباله، ويحضرني الآن رؤيا رأيتها أن ابني محمداً قد أصابه جرح، فجعل يبكي فجعلت أبكي لبكائه رحمةً له، فقلت في نفسي في المنام : إذا كنت أرحم ابني هذه الرحمة، فكيف برحمة الله لعباده المؤمنين، « **وهو أرحم بعباده من الأم بولدها** »(١)، لا بد أنها تكون رحمة عظيمةً جداً فوق ما يخطر ببالنا، فالحمد لله.

واسمه ﴿ **الرَّحِيمِ** ﴾ الاسم الدال على صفة الفعل فهو يختص بمن شاء الله رحمته، كما قال عز و جل: ﴿ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [آل عمران: ٧٤]، وقال : ﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٤٣]، وقال ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ...** ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٦]، وأعظم رحمة خصَّ الله بها عباده المؤمنين هدايتهم للإسلام، وشرح صدورهم له، وتوفيقهم للتقرب إليه بطاعته، وما يفيض عليهم من نعيم قربه وحبه، الذي يعرفهم به جنس النعيم الذي أعده لهم في جنته، ثم ما يخص به سبحانه من شاء بما شاء من أنواع الرحمة التي يتفاوت الخلق فيها أعظم تفاوت، و « **الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** »(٢) فاللهم ارحمنا رحمةً تغننا بها عن رحمة من سواك.

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري(٥٩٩٩) الأدب ، ومسلم(٢٧٥٤) التوبة .

(٢) صحيح : رواه أبو داود(٤٩٤١) الأدب ، والترمذي(١٩٢٤) ، وأحمد(٦٤٩٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٥٢٢) .

الحروف المقطعة في أوائل السور

قوله تعالى: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ الر ﴾ أصح الأقوال في الحروف المقطعةإن شاء الله هو ما ثبت عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وهما من هما في تفسير كلام الله، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: « أمَّا ﴿ الم ﴾ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « ﴿ الم ﴾ أنا الله أعلم، و ﴿ الر ﴾ أنا الله أرى »، وما نقل عن الخلفاء الأربعة بالوقف عن تفسيرها ورجّحه طائفة من المفسرين، فهو منقول بلا إسناد عن الخلفاء الأربعة، ولو صح لكان توقفًا منهم عن أمرٍ لم يعلموا وجهه، لا يمنع غيرهم من الكلام فيه كما تكلم ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، ومما يرجح صحة تفسيرهما عموم قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩]، وهذه آية من آياته فكيف تُتَدَبَّر إن كان التوقف عن تفسيرها لازمًا، وأما القول بأنها تدل على عمر الأمة، فهو قولٌ باطل سنداً ومتنًا وواقعًا، فالغيب لا يعلمه إلا الله، وهذه الطريقة مأخوذة عن أهل الكتاب من اليهود، لا عن النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، وهي مخالفة لما أتى به ﷺ من نفي علم الغيب عن غير الله، خاصةً إن عمر الأمّة معناه انتهاء الدنيا وقيام الساعة، لأن أمّة الإسلام آخر الأمم، فيجب رد هذا القول وإبطاله.

وأما أنها أسماء للسور وأسماء للقرآن، فلا تعارض بين هذا القول وما رجّحناه، فإن السورة تسمى باسم أول آياتها، وهذا في الحقيقة ليس تفسيراً لها، وأما ما رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية من أنها سيقت لبيان إعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي

يتخاطبون بها، وهو أيضاً ترجيح الفراء والمبرد وقطرب والزمخشري، فإنه ليس في مقام تفسيرها، بل في مقام الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي، بقطع النظر عن معانيها في أنفسها كما ذكره ابن كثير رحمه الله، والله أعلم .

﴿ تِلْكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد، واستعماله هنا يشعر بارتفاع قدر آيات الكتاب فوق كل كلام ارتفاعًا هائلاً، وعلواً ساميًا، لا يُنال ولا يُدرك، ولا حتى يَقْرُب منه كلام آخر.

﴿ آيَاتُ ﴾ جمع آية، وهي : العلامة، وآيات القرآن علامات دالة على أنه حق، وأنه من عند الله سبحانه، وعلى صدق محمد ﷺ .

﴿ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ بمعنى : أنه يبين لمن سمعه وقرأه أنه الحق، كما أنه يُوضّح الحق ويُبَيِّنُهُ ويظهره ويُفَصِّلُهُ ويُفسره.

بين يدي القصة

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

وإنزال القرآن من عند الله دليل على عُلُوِّ الله عز وجل وفوقيته كما استفاضت بذلك أدلة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

وعربية القرآن من أعظم معجزات الرسول ﷺ إذ بلغ الغاية في الفصاحة والبيان، مع تضمنه لأخبار الأمم المتقدمة على التفصيل الدقيق لما يُحتاج إليه، وهو مصدقٌ لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنٌ: أي شهيد عليه، يجزم كل عاقل أنه يستحيل أن يكون ترجمة مأخوذة عن كتب الأولين، لأن ترجمة لغة إلى أخرى لا بد أن يقع فيها من ركاكة الألفاظ والمباني ما لا مفر منه للحفاظ على المعاني، وهذه تراجم التوراة والإنجيل بالعربية شاهدة على ذلك أوضح شهادة، فلا تجد فيها من الفصاحة والاتقان والبلاغة عشر معشار ما في القرآن، بل المقارنة أصلاً لا يمكن عقدها، فضلاً عن المعاني الإيمانية من الإيمان بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وقضائه، وقدره، ومن التعريف بالرسل الكرام وصفاتهم الجميلة التي تُحبّب الخلق فيهم، ودعوتهم النقيّة البيّنة في وسائلها ومقاصدها وأدلّتها، ودحض الشبهات المخالفة لها، ومن تحقيق الإيمان باليوم الآخر وربط قلوب العباد بموقفهم غداً بين يدي ربهم، ليُعِدّوا لهذا اليوم عُدَّتَهُ، وغير ذلك مما لا تجده في كتاب آخر بالعربية أو غيرها، كل ذلك مع المحافظة على سياق القصص الموافق تفصيله ما عند أهل الكتاب، بل وأدق مما عندهم، مما يجعل كل عاقل يجزم جزمًا يقينيًا قاطعًا أن القرآن كلام الله، وأن محمد رسول الله ﷺ، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فمن كان عنده عقل أيقن بذلك، ومن شك أو كذب فلانعدام عقله، أو عدم قبوله ما دل عليه العقل لعناده وكبره، وكما بدأت السورة بالتنبيه على شرف القرآن، وإنه من آيات صدق رسول الله

ﷺ ختمت بذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ .

والقرآن دعوة للعقل ليس بالمعنى الاصطلاحي عند المتكلمين ضعاف العقول، وليس كذلك بالاصطلاح المعاصر الذي يجعله الناس مرادفًا للهوى والتحكم، فتجد الواحد منهم على جهله وضلاله، يزعم أنه يريد أن يُحَكِّمَ عقله على أحكام الله ورسوله ﷺ ويعترض عليها، ويُصَوِّب ويُخَطِّئ بزعم أنه يستعمل عقله، وهو في الحقيقة إنما يلهو ويلعب، كصبيٍ صغيرٍ يفكر بعقله المحدود في تركيب جهاز الكتروني غاية في التعقيد، بل والله النسبة أعظم من ذلك، ولكن العقل الذي يدعو القرآن إليه هو إدراك حقائق الوجود، ومعرفة الغاية التي من أجلها وُجد الخلق، ونهاية المطاف بعد هذه الحياة، ومعرفة صفات ربهم ووحدانيته وصدق رسله، وتوابع ذلك من معاني الإيمان، فليس بعاقلٍ من أفنى عمره في لذات الطعام والشراب، والجنس والرياسة، والشهرة والمال، وهو يرى الموت يحصد أمامه من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعًا، وليس بعاقلٍ من رأى عاقبة من سبقه من الكفرة والفساق والعصاة، ثم هو يسير على سنّتهم، ويكرّر غيّهم وضلالهم، وليس بعاقلٍ من نسي نفسه وجعل أجله لغيره، فأفسد دينه وآخرته لإصلاح دنيا غيره، وما أصلحها بل أفسدها، وأشقى نفسه وغيره، إذ لا صلاح إلا في اتباع شرع الله، فالعقل الحقيقي هو في أن يُعِدَّ الإنسان لمستقبله بعد رحيله عن ظهر هذه الأرض، بعد رحلته القصيرة التي يحياها فوقها، ولذا لا يصح وصف الكفار بأنهم يعقلون أو يعلمون، فضلاً أن يكونوا عقلاء العالم أو علماؤه، لإدراكهم بعض أنواع العلوم الدنيوية، إذ لم تَقُدهم هذه العلوم للاهتداء إلى كبرى الحقائق الكونية، وأسباب السعادة الدنيوية والأخروية .

أحسن القصص

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

المقارنة بين قصص القرآن وغيره من القصص، توضح لنا بجلاء هذه الحقيقة أن القرآن أحسن القصص، وقصص غير القرآن إما أن يكون من قصص أهل الكتاب، أو من قصص البشر المخترع، أو المنقول عن من سبقهم كالأساطير، وأنت تجد في قصص أهل الكتاب من الاهتمام بالتفاصيل غير المفيدة كأسماء الأشخاص والبلدان، والأولاد والزوجات، وأنواع الأشجار وألوان الكلاب والحيوانات ونحو ذلك، مما قد ملأ كثيرٌ من المفسرين كتبهم به، وفي قصتنا هذه على سبيل المثال، تجد الاهتمام الكبير بأسماء إخوة يوسف، وأسماء الكواكب التي رآها يوسف ساجدةً له، ونحو هذا مما لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل به، وتجد في القرآن الإعراض عن مثل هذا كله، والبيان لما فيه صلاح القلب والسلوك والخلق والاعتقاد والعمل، وتجد أيضًا في قصص أهل الكتاب المبالغات، فضلاً عمّا دخل في هذا القصص من الأكاذيب والباطل مما تشهد العقول بتناقضه واستحالته، فالحمد لله على نعمته بقصص القرآن.

وأمّا قصص البشر فمبناه على الكذب لا الصدق، وغايته الشهوات الأرضية والأهواء النفسانية، فتجد قصص الناس اليوم الذي يروج بينهم، حول قصص الحب الجنسي الرخيص، ووصف المواقف التي سَتْرُها هو الفطرة السوية، لكنها عند القوم قد طُمست، أو قصص الجريمة والقتل وسفك الدماء والصراعات الحقيرة حول المال والمخدرات والرياسة، وبالطبع فالمرأة كسلعة متداولة مشتركة في كل قصصهم، تَعمى القلوب بقراءة قصصهم أو سماعه أو مشاهدته، وتَفسد

العقائد والأخلاق وتَنحط المجتمعات، وهذه أقوالهم وإحصاءاتهم حول زيادة نسب الجريمة بمشاهدة أفلام الجنس والعنف، وأعتى أنواع الانحراف بين أطفالهم وشبابهم ورجالهم ونسائهم، بسبب السينما والتليفزيون ونحوها من وسائل الإفساد التي مبناها على القصص الفاجر الكاذب المدمر، الذي لا يحتمل عاقل أن يقول بجوازه فضلاً عن متشرعٍ متدين، فنصيحة لكل مسلم ومسلمة بالإعراض عن هذا القصص القاتل للقلوب مشاهدةً في الأفلام، أو سماعًا أو قراءةً باسم الأدب، وما هو إلا إضاعة للأدب، والواجب علينا أن ندرك قيمة النعمة العظيمة بقصص القرآن الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة، وهو أحسن القصص الذي يذهب المَلَلَ، كما ورد في سبب نزول سورة يوسف من حديث عبد الله رضي الله عنه قال : مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّة، فقالوا: يا رسول الله، حدثنا، فأنزل الله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر : ٢٣]، ثمّ ملّوا ملّة أخرى، فقالوا : يا رسول الله، حدثنا فوق الحديث ودون القرآن – يعنون القصص– ، فأنزل الله : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾ الآية، رواه ابن جرير والحاكم (١) .

وهذه السورة تميزت عن باقي قصص القرآن بأنها سياق تام لقصة واحدة، لم تتكرر بالتفصيل في موضع آخر من القرآن، ولم تُجزأ أجزاء القصة على مواضع مختلفة في سور مختلفة من القرآن، كقصة موسى عليه السلام مثلاً، تجدها قد تكررت وبتفاصيل مختلفة في سور مختلفة، ولم تسق سياقًا واحدًا تامًا في موضعٍ واحدٍ، بخلاف سورة يوسف ففيها من الإعجاز القصصي ما يبهر العقول والقلوب، فصلى الله على من أنزلها على قلبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) صحيح : رواه ابن جرير والحاكم (٣٣١٩)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٤٦٨) وسكت عنه، والطبري في تفسيره (١٢/١٥٠) قال حدثنا وكيع حدثنا أبي عن المسعودي عن عون بن عبد الله قال « مل أصحاب رسول الله ... » الحديث، وذكره أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (٤/٢٤٨) و صححه الألباني في صحيح الموارد (١٤٦٢).

وأما قوله : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي : عن تفاصيل ما أوحى الله إليه من الكتاب والإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى : ٥٢]، ولقد كان النبي ﷺ قبل البعثة مجتنبًا لعبادة الأوثان، مبتعدًا عن مساوئ الأخلاق، متعبدًا لله على التوحيد، لكنه لم يكن يعلم تفاصيل الإيمان، والعلم الذي امتنّ الله عليه بإنزال هذا القرآن العظيم على قلبه، وكذلك كل عبدٍ لا يتدبر القرآن ولا يتعلمه يكون من الغافلين، فالقرآن ذِكرٌ لمن يتذكر، منبهٌ من سِنة الغفلة، يحيي الله به قلوب من اصطفاهم من عباده، فتستيقظ القلوب لنور التنبيه، وتُعِدّ العدّة للسير على الصراط المستقيم الموصل إلى رحمة رب العالمين.

رؤيا يوسف عليه السلام

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ ﴾ بمعنى : حين، متعلقة بفعلٍ محذوفٍ تقديره : واذكر يا محمد حين قال يوسف لأبيه، ويوسف عليه السلام أكرم الناس كما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن إسحق ابن إبراهيم** » رواه البخاري(١)، وروي أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**»، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : « **فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» ، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : « **فعن معادن العرب تسألونني؟** » قالوا : نعم، قال: « **خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا** » متفق عليه (٢) . فيوسف أكرم الناس نسبًا و شرفًا، ومع ذلك جرى له ما جرى من البيع رقيقًا والسجن وفراق الوالدين منذ الصغر إلى نحو الأربعين عامًا وغير ذلك، وهذا كله مما يبيّن لنا هوان الدنيا على الله سبحانه وحقارتها، فلو كانت ذات قيمة لما حرم منها أكرم الخلق عليه، ولما عرَّضهم فيها لأنواع البلايا، وصدق النبي ﷺ : « **لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء** » (٣)، فإذا حرم الكريم حبيبه جناح بعوضة أو أهون، فما أهانه ولا منعه فله الحمد .

---

(١) رواه البخاري(٣٣٩٠) تفسير القرآن ، ، والترمذي(٣١١٦) ، وأحمد (٥٦٧٩) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري(٣٣٥٣) أحاديث الأنبياء ، ومسلم(٢٣٧٨) الفضائل ، وأحمد (٧٤٤٤) مسند المكثرين من الصحابة .

(٣) صحيح : رواه الترمذي(٢٣٢٠) الزهد عن رسول الله ، وابن ماجة(٤١١٠) الزهد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٥٢٩٢) .